همومهما على الاقل ـ تحقيق استجابة أكثر اخلاصا وصدقا مع الواقع الفلسطيني وقضيته الحارة والمحورية.

وتبدو امكانية العثور على هاتين الروايتين صعبة، مما يجعل الحكم عليهما يفتقد الكثير من مصداقيته. لكن الاشارة المبتسرة التي أوردها الدكتور ياغي، تؤكد على أن هموم الكاتب كانت وطنية وذات خصوصية فلسطينية، اذ يقول: «ومن بين كتّاب القصة الطويلة في هذه المرحلة السيد جمال الحسيني حيث اتخذ الوطنية والتضحية نواة نسج حولها قصته (على سكة الحجاز) وقصته (ثريا)»[٢٥].

وتؤكد ذلك اشارة اخرى أوردها ابراهيم عبد الستار في معرض حديثه عن رواية «على سكة الحجاز».. فهي «مأساة لترحيل قرية عربية كاملة من موطنها في اللواء الشمالي ورسم ظروف عائلات تلك القرية وانواع الارتباك والمتاعب التي استولت على افكارهم وحياتهم المعنوية والمادية عندما موجموا بانذار الحكومة وقد تعودوا أن يعيشوا من محصولهم كل عام، وفي سكة الحجاز وصف للروح الوطنية المؤزرة بعناصر التضحية في نفوس الشباب العربي الفلسطيني. فالى جانب تلك القصة مأساة حزينة شجية هي أيضا مليئة بالتشوف والاطمئنان الى مبادي وأعمال وطنية انشائية»[٢٦].

لكن ضياع هاتين الروايتين، يبقى حائلاً دون وضعهما الدقيق في موضعهما كنتاج قد يكون متميزاً في اطار العطاء الروائي الفلسطيني لتلك الحقبة. إلا أن ما يتوفر حولهما من اشارات، يظل قادراً على تكوين انطباع أولي عنهما: فهما في موضوعهما وهمومهما لم تستنكفا ولم تغتربا ولم تخونا، بل ظلتا ملتصقتين بواقعهما ومخلصتين في استلهامه والتعبير عن الأكثر جوهرية من قضاياه.

ومع ذلك، فان غياب هذه النصوص، يظل يفرض رؤيتها من زاوية احادية، مضمونية ـ وفي عموميتها ـ، دون توفر امكانية قراءتها التفصيلية في رؤية تلك الجدلية التي تقوم بين التشكل والمضمون في تزاوجهما للتعبير عن قضية محددة. ولذلك، تظل قراءة النصوص نفسها مسألة اخرى!

ان مقارنة الانتاج الروائي الفلسطيني قبل سنة ١٩٤٨ بالاشكال الأدبية الاخرى، الاكثر قدرة على الاستجابة لحرارة الاحداث، تعطي صورة اجمالية شديدة التواضع لحجم ومستوى هذا الانتاج. ففي حين اقتربت حركة الشعر الفلسطيني في تلك المرحلة من حركة التاريخ، واستجابت للواقع لتستمد حرارتها من حرارته ولتلعب دوراً في شحن الوجدان الجماهيري وتحريكه، فان الرواية ظلت عاجزة عن اكتساب حضورها كفن متميز له خصوصيته ودوره ومعناه.

مثل هذا التخلف يستدعي طرح العديد من الأسئلة: هل لأن الرواية، حتى ذلك الحين، كانت فنا يحتفظ بجدته في بلد مثل فلسطين؟ أم أن حرارة الاحداث لم تدع وقتا للتجربة لكي تختمر؟ وهل لأن من مارسوا هذا الفن كانوا بعيدين عن الممارسة النضالية، فعجزوا عن استيعاب واقعهم واعادة انتاجه من خلال هذا الشكل الفني المركب؟ أم ان الواقع الحار أملى شروطه ومتطلباته فتراجعت الكتابة لصالح الخطابة؟